حكم النبي محمد

للفيلسوف تولستوي

وشيء عن الإسلام

نقله إلى العربية عن الروسية

سليم قبعين

مصرية
للنشر والتوزيع

حكم النبي محمد ﷺ

غلاف : يوسف شاكر

•حكم النبى محمد
للفيلسوف تولستوى ، ترجمة : سليم قبعين الطبعة الثانية ، ١٩١٥ الطبعة الثالثة ، ٩٨٧

٨٨ ش العطوف ، الجمالية ــ القاهرة ، ص . ب : ١٥٥ الغورية

حكم النبي محمد ﷺ

للفيلسوف تولستوي

وشيء عن الإسلام

نقله الى العربية عن الروسية

سليم قبعين

كلمة لمعرب الكتاب

الرجل العظيم يحترم الرجل العظيم والنفوس الفياضة تصبو إلى نظرائها .

عرف قراء اللغة العربية ماتصف به الفيلسوف الكونت لاون تولستوى من الجرأة ودفاعه عن الحق الصراح دون أن يخشى لومة لائم أو نقمة ناقم حتى كان يخاطب قيصر روسيا ورجال حكومته مبينا لهم حالة الرعية والبلاد وما تحتاجه من الإصلاحات التى غفلوا عنها والواقف على نظامات روسيا وأحكامها المطلقة لا يسعه إلا أن يعجب بتلك الشجاعة الأدبية الكامنة فى جوانح الفيلسوف وعدم رهبته تلك السلطة المطلقة .

رأى الفيلسوف تحامل جمعيات المبشرين فى قازان من أعمال روسيا على الدين الإسلامى ونسبتها إلى صاحب الشريعة الإسلامية أموراً تنافى الحقيقة تصور للروسيين تلك الديانة وأعمال صاحب تلك الشريعة بصورة غير صورتها الحقيقية فهزته الغيرة على الحق إلى وضع رسالة صغيرة أختار فيها عدة أحاديث من أحاديث النبى محمد عليه الصلاه والسلام ذكرها بعد مقدمة جليلة الشأن واضحة البرهان وقال : هذه تعاليم صاحب الشريعة الإسلامية وهى عبارة عن حكم عالية ومواعظ سامية تقود الإنسان إلى سواء السبيل ولا تقل فى شىء عن تعاليم الديانة المسيحية ووعد بأنه سيضع كتاباً كبيراً يبحث

فيه أبحاثاً إضافية بعنوان « محمد » .

ولما اطلعت على هذه الرسالة راقنى ما جاء فيها من الحقائق الباهرة والمقاصد الشريفة فدفعتنى الغيرة على الحق لنقلها إلى اللغة العربية وقد عانيت المشاق فى رد الأحاديث إلى أصولها العربية التى وردت فيها وإنى أرجو أن تصادف خدمتى هذه القبول الحسن عند عامة المسلمين . وهذا ما أتوخاه فى هذه الهدية التى أزفها للشرقيين عموما وذاك حسبى وكفى .

كتبه ــ سليم قبعين

حكم النبي محمد
للفيلسوف تولستوي

عرب عبد الله السهروردى فى الهند كتاب أحاديث النبى محمد وأتخذ لكتابه عنواناً الآية القرآنية الآتية ﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ .

والأحاديث المذكورة فى هذه الرسالة اختارها من كتاب عبد الله السهروردى الفيلسوف تولستوى وقال إنها لا تخالف فى شيء تعاليم الديانات الأخرى التى ترشد إلى الحق وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

مَن كان محمّد

قال الفيلسوف تولستوى تحت هذا العنوان ما هو بالحرف الواحد :

إن محمداً هو مؤسس ورسول الديانة الإسلامية التى يدين بها فى جميع جهات الكرة الأرضية مائتا مليون نفس .

ولد النبى محمد فى بلاد العرب سنة ٥٧٠ بعد ميلاد المسيح من ابوين فقيرين وكان فى حداثته راعياً . ومال منذ صباه إلى الانفراد فى البرارى والأمكنة الخالية حيث كان يتأمل بالله وخدمته أن العرب المعاصرين له عبدوا أرباباً كثيرة وبالغوا فى التقرب إليها واسترضائها فأقاموا لها أنواع التعبد وقدموا لها الضحايا المختلفة ومنها الضحايا البشرية . ومع تقدم محمد فى السن كان اعتقاده يزداد بفساد تلك الأرباب وأن ديانة قومه ديانة كاذبة وأن هناك إلهاً واحداً حقيقياً لجميع الشعوب .

وقد ازداد هذا الاعتقاد فى نفس محمد حتى قام فى نفسه أن يدعو أمته ومواطنيه إلى الاعتقاد باعتقاده الراسخ فى فؤاده وقد دفعه عامل داخلى إلى أن الله اصطفاه لإرشاد أمته وعهد إليه هدم ديانتهم الكاذبة وإنارة أبصارهم بنور الحق فأخذ من ذلك العهد ينادى باسم الواحد الأحد بحسب ما أوحى إليه ومقتضى اعتقاده الراسخ .

وخلاصة هذه الديانة التى نادى بها محمد هى أن الله واحد

لا إله إلا هو ولذلك لايجوز عبادة أرباب كثيرة وأن الله رحيم عادل وأن مصير الإنسان النهائى متوقف على الإنسان نفسه فإذا سار حسب شريعة الله وأتم أوامره واجتنب نواهيه فإنه فى الحياة الأخرى يؤجر أجراً حسناً وإذا خالف شريعة الله وسار على هواه فإنه يعاقب فى الحياة الأخرى عقاباً شديداً . وأن كل شيء فى هذه الدنيا فان زائل ولا يبقى إلا الله ذو الجلال . وأنه بدون الإيمان بالله وإتمام وصاياه لا يمكن أن تكون حياة حقيقية وأن الله تعالى يأمر الناس بمحبته ومحبة بعضهم ومحبة الله تكون فى الصلاة ومحبة القريب تقوم فى مشاركته فى السراء والضراء ومساعدته والصفح عن زلاته وأن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر يقتضى عليهم أن يبذلوا وسعهم لإبعاد كل مامن شأنه إثارة الشهوات النفسانية والابتعاد أيضا عن الملذات الأرضية وأنه يتحتم عليهم أن لا يخدموا الجسد ويعبدوه بل يجب عليهم أن يخدموا الروح وأن يزهدوا فى الطعام والشراب وأنه محرم عليهم استعمال الأشربة الروحية المهيجة ومحتم عليهم العمل والجد وما شابه ذلك .

ومحمد لم يقل عن نفسه أنه نبى الله الوحيد بل اعتقد أيضا بنبوة موسى والمسيح وقال إن اليهود والنصارى لا يكرهون على ترك دينهم بل يجب عليهم أن يتمموا وصايا أنبيائهم .

وفى سنى دعوة محمد الأولى احتمل كثيراً من اضطهاد أصحاب الديانة القديمة شأن كل نبى قبله نادى أمته إلى الحق ولكن هذه الاضطهادات لم تثن عزمه بل ثابر على دعوة أمته .

وقد امتاز المؤمنون كثيرا عن العرب بتواضعهم وزهدهم فى الدنيا وحب العمل والقناعة وبذلوا جهدهم لمساعدة إخوانهم فى الإيمان لدى حلول المصائب بهم .

ولم يمض على جماعة المؤمنين زمن طويل حتى أصبح الناس

المحيطون بهم يحترمونهم احتراماً عظيماً ويعظمون قدرهم وغدا عدد المؤمنين يتزايد يوماً فيوماً .

غير أن أصحاب الغيرة من أنصار النبى كانوا ينظرون إلى الوثنيين المحيطين بهم وفسادهم بعين الغضب والاستياء فدفعتهم غيرتهم على الحق إلى التشدد فى الدعوة إلى دين الإسلام والاعتراف بوحدانية الله ومع أن هؤلاء الأنصار لم يبيحوا سفك الدماء للحصول على الأموال أو غيرها من متاع الدنيا من جانب فإنهم من الجانب الآخر لم يبيحوا التهاون أو التخاذل أمام أولئك الذين أصروا على البقاء فى الضلال .

وإذا كان انتشار الإسلام بصورة كبيرة على يد هؤلاء لم يرق بعض من البوذيين والمسيحين فإن ذلك لا ينفى حقيقة أن المسلمين اشتهروا فى صدر الإسلام بالزهد فى الديانة الباطلة وطهارة السيرة والاستقامة والنزاهة حتى أدهشوا المحيطين بهم بما هم عليه من كرم الأخلاق ولين العريكة والوداعة ومن فضائل الدين الإسلامى أنه أوصى خيراً بالمسيحيين واليهود لاسيما قسوس الأوليين فقد أمر بحسن معاملتهم ومؤازرتهم حتى أباح هذا الدين لاتباعه التزوج من المسيحيات واليهوديات مع الترخيص لهم بالبقاء على دينهم ولايخفى على أصحاب البصائر النيرة ما فى هذا من التساهل العظيم ومما لاريب فيه أن النبى محمدا من عظام المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق وجعلها تجنح للسكينة والسلام وتفضل عيشة الزهد ومنعها عن سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية وفتح لها طريق الرقى والمدنية وهو عمل عظيم لايقوم به إلا شخص أوتى قوة ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام .

من مقدمة المؤلف الهندى

إنا لله وإنا إليه راجعون . إننا جميعنا أبناء الله وحياتنا تنحصر فى التقرب إليه تعالى . إن شرارة الإيمان مختفية فى قلب كل إنسان .

إن ديننا القويم يقدم رجاء الخلاص لجميع أتباعه والذين يدخلونه . إن النفس التى تكرم القدير العظيم ـــ تلك النفس التى تسعى إلى معرفة الحق وتسير فى طريق الصلاح ستحظى بالحياة الأبدية والغبطة الدائمة .

عبد الله السهروردى

الأحاديث النبوية (١)

● اللهم ارزقنى حبك وحب من ينفعنى حبه عندك .
● قل الحق وإن كان مرا .
● أنصر أخاك ظالما أو مظلوما . فقال رجل يارسول الله أنصره مظلوما . فكيف أنصره ظالما ؟ فقال تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه .
● من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد . ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغفر . ومن تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً . ومن أتانى يمشى أتيته هرولة ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بى شيئا لقيته بمثلها مغفرة .
● ● اللهم أحينى مسكيناً وتوفنى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين .
● لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه
● حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات .
● الحلال بيّن والحرام بيّن .
● ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء .
● سأل رجل النبى صلى الله عليه وسلم أى الإسلام خير ؟ قال : أن تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف .
● لا تميتوا قلوبكم بكثرة الطعام والشراب .

(١) هذه الأحاديث احتارها الفيلسوف تولستوى من كتاب عبد الله السهروردى وعربها من الإنكليزية إلى الروسية كما أشرنا إليها سابقاً ودعاها « حكم النبى » وفى الأصل الروسى أحاديث غير هذه لم نقف عليها فى كتب الأحاديث ويظهر أنها من حكم الأولياء أو العرب التى ينسبها الإفرنج فى كتبهم إلى النبى .

كنت

● كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فعرفونى .
● أفضل الصدقة إصلاح ذات البين وحفظ اللسان .
● أيما امرأة استعطرت ثم خرجت فمرت بقوم ليجدوا ريحها فهى زانية وكل عين زانية .
● الجليس الصالح خير من الوحدة والوحدة خير من جليس السوء . وأملاء الخير خير من السكوت والسكوت خير من أملاء الشر .
● زنا العين النظر . وزنا النفس المنطق والنفس تتمنى وتشتهى .
● من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً .
● القبر أول منزلة من منازل الآخرة .
● أفضل الجهاد من جاهد نفسه فى ذات الله عز وجل .
● إن الرجل إذا دخل فى صلاته أقبل الله عليه بوجهه .
● إن الله تعالى يحب أن يرى عبده ساعياً فى طلب الحلال .
● من يصبر على الرزية يعوضه الله .
● آفة الدين ثلاثة : فقيه فاجر . وإمام جائر . ومجتهد جاهل .
● إنما النساء شقائق الرجال .
● آفة العلم النسيان وإضاعته أن تحدث به غير أهله .
● الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة .
● الكذب مجانب للإيمان .
● إعقلها وتوكل .
● لاعبادة كالتفكر .
● حبك للشىء يعمى ويصم .

● لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه .

● أفضل كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ماخلا الله باطل .

● ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدق ، قالوا بلى يا رسول الله قال لله إصلاح ذات البين .

● إن أول خلق خلقه الله عز وجل العقل . فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر . فقال وعزتى وجلالى ماخلقت خلقاً هو أحب إلى منك بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب .

● ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد هو الذى تملك نفسه عند الغضب .

● ارض بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس .

● إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال فلينظر إلى من هو أسفل منه .

● دخل عمر على رسول الله وهو على حصير قد أثر فى جنبه فقال يانبى الله لو اتخذت فراشاً . فقال مالى وللدنيا مامثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سار فى يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من النهار ثم راح وتركها .

● خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكراً صابراً : من نظر فى دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به . ومن نظر فى دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على مافضله الله عليه .

● جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إنى أحبك قال انظر ماتقول ، فقال إنى والله لأحبك ثلاث مرات . قال إن كنت صادقا فاعد محفافاً للفقر أسرع إلى من يحبنى من السيل إلى منتهاه .

● ليردك عن الناس ماتعلم من نفسك .

● امش ميلاً عد مريضاً . وامش ميلين أصلح بين اثنين وامط الأذى عن الطريق فإنه لك صدقة .

● اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى وأن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط إياك وإسبال الآزار فإن إسبال الآزار من المخيلة ولايحبها الله . وإن امرأً شتمك وعيرك بأمر هو فيك فلا تعيره بأمر هو فيه ودعه يكون وباله عليه وأجره لك . ولا تسبن أحدا .

● قدم على النبى ﷺ بسبى فإذا امرأة من السبى تحلب ثديها تسقى . إذا وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته . فقال النبى : أترون هذه طارحة ولدها فى النار قلنا لا . وهى تقدر على أن لا تطرحه . فقال الله أرحم بعباده من هذه بولدها .

● من ظلم أجيراً أجره أحبط الله عمله وحرم عليه ريح الجنة .

◇

(دعاء النبى)

ياحى ياقيوم لا آله إلا أنت برحمتك أستغيث اغفر لى ذنوبى وأصلح لى شأنى وفرج لى همى برحمتك .

اغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب العظيمة إلا الرب العظيم احرسنى بعينك التى لا تنام واكنفنى بركنك الذى لا يرام وارحمنى بقدرتك علىّ فلا أهلك وأنت رجائى فكم من نعمة أنعمت بها علىّ قلّ لك عندها شكرى وكم من بلية ابتليتنى بها قلّ لك عندها صبرى ياذا المعروف الذى لاينقضى أبداً وياذا النعماء التى لا تحصى عدداً نجنى مما أنا فيه وأعنى على ما أنا عليه مما قد نزل بى بجاه وجهك الكريم .

قال

قال النبى وحوله جماعة من أتباعه : « تعالوا بايعونى على أن لاتشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولاتزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتون ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصونى فى معروف فمن وفّى منكم فأجره على الله » .

سيأتى زمان لايبقى من الإسلام إلا اسمه ولامن الدين إلا وسمه تنزع الرحمة من قلوبهم وتقل مكاسب الحلال ويكثر الحرام .

عفوا تعف نساؤكم .

علم لاينفع ككنز لاينفق منه .

ليس من أخلاق المؤمن التملق ولا الحسد إلا فى طلب العلم .

زين الله السماء بثلاث : الشمس والقمر والكواكب وزين الأرض بثلاث : العلماء والمطر وسلطان عادل .

العلم إمام والعمل تابعه يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء .

العالم إذا خرج من الدنيا كالمصباح يخرج من بيت مظلم .

وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب .

يقول الله عز وجل يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده أما أنك لو عدته لوجدتنى عنده . ياابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى قال : يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى قال : يارب وكيف اسقيك وأنت رب العالمين قال : أستسقاك عبدى فلان لم تسقه أما علمت لو سقيته لوجدت ذلك عندى .

اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لأخراك كأنك تموت غدا .

من كذب فجر ومن فجر كفر ومن كفر دخل النار

وكتب الإمام المرحوم الأستاذ العلامة الشيخ محمد عبده إلى الفيلسوف تولستوى واضع هذا الكتاب الخطاب الآتى فآثرت إثباته لجزيل فائدته وهو بالحرف الواحد :

أيها الحكيم الجليل موسيو تولستوى :

لم نحظ بمعرفة شخصك ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك ، سطع علينا نور من أفكارك ، وأشرقت فى آفاقنا شموس من آرائك ، ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك . هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التى فطر الناس عليها ووقفك على الغاية التى هدى البشر إليها ، فأدركت أن الإنسان جاء إلى هذا الوجود لينبت بالعلم ويثمر بالعمل ولأن تكون ثمرته تعباً ترتاح به نفسك وسعياً يبقى به ويرقى جسنه وشعرت بالشقاء الذى نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة وبما استعملوا قواهم التى لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها فيما كدر راحتهم وزعزع طمأنينتهم .

ونظرت نظرة فى الدين مزقت حجب التقاليد ، ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ماهداك الله إليه ، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه فكما كنت بقولك هادياً للعقول كنت بعملك حاثاً للعزائم والهمم ، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى بها الضالون كان مثالك فى العمل إماماً يقتدى به المسترشدون ، وكما كان وجودك توبيخاً من الله للأغنياء كان مداداً من عنايته للضعفاء الفقراء ، وإن أرفع مجد بلغته وأكبر جزاء نلته على متاعبك فى النصح والأرشاد هو هذا الذى سماه الغافلون بالحرمان والإبعاد ، فليس ماحصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين فاحمد الله على أن فارقوك فى أقوالهم كما كنت فارقتهم فى عقائدهم وأعمالهم .

هذا

هذا وإن نفوسنا لشيقة إلى مايتجدد من آثار قلمك فيما تستقبل من أيام عمرك وإنا نسأل الله أن يمد فى حياتك ويحفظ عليك قواك ويفتح أبواب القلوب لفهم قولك ويسوق النفوس إلى التأسى بك فى عملك والسلام .

ولما انتقل الفيلسوف تولستوى من دار الفناء إلى دار البقاء وقع نبأ وفاته وقعا مؤلماً فى الغرب والشرق ورثاه الفلاسفة والشعراء ومن ذلك ما قاله شاعر وداى النيل صاحب السعادة أحمد بك شوقى حيث قال :

(طولستوى) تجرى آية العلم دمعها
عليك ويبكى بائس وفقير
وشعب ضعيف الركن زال نصيره
وماكل يوم للضعيف نصير
ويندب فلاحون أنت منارهم
وأنت سراج غبّوة منير
يعانون فى الأكواخ ظلماً وظلمة
ولا يملكون البث وهو يسير
تطوف كعيسى بالحنان وبالرضى
عليهم وتغشى دورهم وتزور
ويأسى عليك الدين إذ لك لبه
وللخادميه الناقمين قشور
أيكفر بالإنجيل من تلك كتبه
أناجيل منها منذر وبشير
ويبكيك ألف فوق (ليلى) ندامة
غداة مشى (بالعامرى) سرير
تناول ناعيك البلاد كأنه
يراع له فى راحتيك سرير
وقيل تولى (الشيخ) فى الأرض هائما
وقيل (بدّير) الراهبات أسير

وقيل

وقيل قضى لم يغن عنه طبيبه
وللطب من بطش القضاء عذير
إذا أنت جاورت (المعرى) فى الثرى
وجاور (رضوى) فى التراب (ثبير)
وأقبل جمع الخالدين عليكما
وغالى بمقدار النظير نظير
جماجم تحت الأرض عطرها شذى
جنَاهنَّ مسك فوقها وعبير
بهن يباهى بطن (حواء) واحتوى
عليهن بطن الأرض وهو فخور
فقل ياحكيم الدهر حدث عن البلى
فأنت عليهم بالأمور خبير
أحطت من الموتى قديماً وحادثاً
بما لم يحصل منكر ونكير
طوانا الذى يطوى السموات فى غد
وينشر بعد الطى وهو قدير
تقادم عهدانا على الموت واستوى
طويل زمان فى البلى وقصير
كأن لم تضق بالأمس عنى كنيسة
ولم يؤونى دَيْرٌ هناك طهور
أرى راحة بين الجنادل والحصى
وكل فراش قد أراح وثير
نظرنا بنور الصوت كل حقيقة
وكنا كلانا فى الحياة ضرير
إليك اعترافى لا لقس وكاهن
ونجواى بعد الله وهو غفور

فزهدك لم ينكره فى الأرض عارف
ولا متعال فى السماء كبير
بيان يشم الوحى من نفحاته
وعلم كعلم الأنبياء غزير
سلكت سبيل المترفين ولذّ لى
بنون ومال والحياة غرور
آداة شتائى الدفء فى ظل شاهق
وعدة صيفى جنة وغدير
ومتعت بالدنيا ثمانين حجة
ونضر أيامى غنى وحبور
وذكر كضوء الشمس فى كل بلدة
ولاحظ مثل الشمس حين تسير
فما راعنى إلا عذارى أجرننى
ورب ضعيف تحتمى فيجير
أردت جوار الله والعمر منقض
وجاورته فى العمر وهو نضير
صبا ونعيم بين أهل وموطن
ولذات دنيا كل ذاك نذور
بهن وما يدرين ما الذنب خشية
ومن عجب تخشى الخطيئة حور
أوأنس فى داج من الليل موحش
ولله أنس فى القلوب ونور
وأشبه طهر فى النساء بمريم
فتاة على نهج المسيح تسير
تسائلنى هل غير الناس مابهم
وهل حدثت غيرالأمور أمور

وهل

وهل آثر الإحسان والرفق عالم
دواعى الأذى والشر فيه كثير
وهل سلكوا سبل المحبة بينهم
كما يتصافى أسرة وعشير
وهل آن من أهل الكتاب تسامح
خليق بآداب الكتاب جدير
وهل عالج الأحياء بؤسا وشقوة
وقل فساد بينهم وشرور
ثم أنظر وأنت المالىء الأرض حكمة
أأجدى نظيم أم أفاد نثير
أناس كما تدرى ودنيا بحالها
ودهر رخىٌّ تارة وعسير
وأحوال خلق غابر متجدد
تشابه فيها أول وأخير
تمر تباعاً فى الحياة كأنها
ملاعب لا ترخى لهن ستور
وحرص على الدنيا وميل مع الهوى
وغش وإفك فى الحياة وزور
وقام مقام الفرد فى كل أمة
على الحكم جم يستبد غفير
وحور قول الناس مولى وعبده
إلى قولهم مستأجر وأجير
وأضحى نفوذ المال لاأمر فى الورى
ولا نهى إلا مايرى ويشير
تساس حكومات به وممالك
ويذعن إقبال له وصدور

وعصر

وعصر بنوه فى السلاح وحرصه
على السلم يجرى ذكرها ويدير
ومن عجب فى ظلها وهو وارف
يصادف شعباً آمنا فيغير
ويأخذ من قوت الفقير وكسبه
ويؤوى جيوشاً كالحصى ويمير
ولما استقل البر والبحر مذهباً
تعلق أسباب السماء يطير

◆

وقال حضرة الشاعر المشهور حافظ بك إبراهيم يرثى الفيلسوف أيضاً :

رثاك أمير الشعر فى الشرق وانبرى
لمدحك من كتاب مصر كبير
ولست أبالى حين أرثيك بعده
إذا قيل عنى قد رثاه صغير
فقد كنت عونا للضعيف وإننى
ضعيف ومالى فى الحياة نصير
ولست أبالى حين أبكيك للورى
حوتك جنان أو حواك سعير
فانى أحب النابغين لعلمهم
وأعشق روض الفكر وهو نضير
دعوت إلى عيسى فضجت كنائس
وهز لها عرش وماد سرير
وقال أناس إنه قول ملحد
وقال أناس إنه لبشير

ولولا

ولولا حطام رد عنك كيادهم
لضقت به ذرعاً وساء مصير
ولكن حماك العلم والرأى والحجى
ومال إذا جد النزال وفير
إذا زرت رهن المحبسين (١) بحفرة
بها الزهد ثاو والذكاء مثير
وأبصرت أنس الزهد فى وحشة الليل
وشاهدت وجه الشيخ وهو منير
وأيقنت أن الدين لله وحده
وأن قبور الزاهدين قصور
فقف ثم سلم وأحتشم إن شيخنا
مهيب على رغم الفناء وقور
وسائله عما غاب عنك فإنه
عليم بأسرار الحياة بصير
يخبرك الأعمى وإن كنت مبصراً
بما لم تخبر أحرف وسطور
كأنى بسمع الغيب أسمع كلما
يجيب به أستاذنا ويحير
يناديك أهلاً بالذى عاش عيشنا
ومات ولم يدرج إليه غرور
قضيت حياة ملؤها البر والتقى
فأنت بأجر المتقين جدير
وسموك فيهم فيلسوفاً وأمسكوا
وما أنت إلا محسن ومجير
وما أنت إلا زاهد صاح صحية
يرن صداها ساعة ويطير

(١) يريد أبا العلاء المعرى .

سلوت عن الدنيا ولكنهم صبوا
إليها بما تعـــــــطيهم وتمير
حياة الورى حرب وأنت تريدها
سلاماً وأسباب الكفاح كثير
أبت سنة العمران إلا تناحراً
وكدحاً ولو أن البقاء يسير
تحاول رفع الشر والشر واقع
وتطلب محض الخير وهو عسير
ولولا امتزاج الشر بالخير لم يقم
دليل على أن الإلـه قديـــر
ولم يبعث الله النبيين للهدى
ولم يتطلـــع للسريـــر أمير
ولم يعشق العلياء حر ولم يسد
كريم ولم يرج الثراء فقير
ولو كان فينا الخير محضا لماادعا
إلى الله داع إن تبلج نور
ولا قيل هذا فيلسوف موفق
ولا قيــل هذا عالم وخـــبير
فكم فى طريق الشر خير ونعمة
وكم فى طريق الطيبات شرور
ألم تر أنى قمت قبلك داعياً
إلى الزهد لايأوى إلىّ ظهير
أطاعوا أبيكير وسقراط قبله
وخولفت فيما أرتئـــى وأشير
ومت وما ماتت مطامع طامع
عليها ولا ألقى القياد ضمير

إذا

إذا هدمت للظلم دور تشيدت
له فوق أكتاف الكواكب دور
أفاض كلاماً فى النصيحة جاهداً
ومات كلانا والقلوب صخور
فكم قيل عن كهف المساكين باطل
وكم قيل عن شيخ المعرة زور
وماصد عن فعل الأذى قول مرسل
ولا راع مفتون الحياة نذير

◆◆

رأى تولستوى

فى الحجاب والزواج ومابينهما

قال الفيلسوف فى الطلاق والحجاب : إن السبب فى مسألة الطلاق التى تشغل الآن الرأى العام فى أوربا هو التمدن الذى لم يقتبس الإنسان منه سوى الحمق والخلاعة هذا هو السبب الحقيقى فى ازدياد الطلاق نمواً كل يوم . فلا يمضى على زواج امراة برجل ردح من الزمن حتى تقول له حاذر أن أتركك وأمضى إلى حال سبيلى . سرى ذلك من الربوع العالية فى المدن إلى أكواخ الفلاحين . فالفلاحة لأقل شىء تقول لزوجها خذ قمصانك وسراويلك لأنى تاركة لك وذاهبة مع حبيبى يوسف الذى يفوقك حسنا وبهاء .

هذا لأن المرأة خلعت ثياب الحشمة واحترام الزوج وخرجت من دائرة الخضوع له تلك الواجبات التى ينبغى أن تبقى عليها حتى انقضاء الأجل .

على الرجل أن يكد ويشتغل وما على المرأة إلا أن تقيم فى البيت لأنها زوجة أو بعبارة أخرى إناء لطيف سريع الانثلام والانكسار .

على الرجل أن يراقب سلوك امرأته ولايطلق لها العنان بل يحجبها فى البيت والبيت دائرة حرية واسعة للمرأة . ثم ختم هذه السطور بمثل روسى وها هو :

« لا تركن إلى الفرس فى الغيط واركن للمرأة فى البيت »

وقال عن الحب والزواج :

إن دوام الحب بين الزوجين من رابع المستحيلات . إنه قد يكون حب ولكن إلى وقت قصير جداً ثم لايدوم إلا فى الروايات فقط وأما بين الناس فعديم الاستقرار فى قلبين معاً وكل رجل متزوجاً كان أو غير متزوج إذا اجتازت به غادة فتانة فأكثر مايكون منه أن يوجه إليها التفاتة وقد يبذل بعضهم كل مرتخص وغال بعد ذلك فى سبيل الوصول إليها . والمرأة من هذا القبيل كالرجل فإنها تجتهد للأتصال بأكثر من واحد دائماً ومادام يمكنها هذا الاتصال فهى نائلة أربها لامحالة .

إذا قلنا إنه يمكن للمرأة أن تحب زوجها طول الحياة فما مثلنا فى ذلك إلا مثل من يوقد شمعة وهو يعتقد أنها تدوم مضيئة طوال الدهر .

إن الزواج أصبح فى عصرنا هذا بيناً محض خداع ولكنه لايزال يوجد عند أولئك الذين يرون فيه سراً من أسرار الدين كالمسلمين والصينيين والهنود . أما نحن فلا نرى فيه غير تلك المقارنة الحيوانية .

الزوجان يخدعان الناس بأنهما يعيشان معا فى ارتباط عائلى حقيقى بالزواج . يظهر كذلك أمرهما فى الخارج لكل من رآهما وإنهما سيبقيان فى تمام الوفاق مادامت الحياة والحقيقة أنهما يعيشان على قاعدة تعدد الزوجات ولكن من الجانبين وبهذا التكافؤ قد يتفقان زمناً . وعلى الأكثر إن كليهما فى الشهر الثانى يهدد صاحبه بالطلاق وقبلما يتمكنان من وسائله . وعن ذلك تصدر الأفكار الخبيثة الجهنمية التى ينجم عنها إطلاق الرصاص انتحاراً أو قتلاً أو دس السم وما أشبه .

وقال فى الفساد المنتشر بين الناس : وتفسد أخلاق الشاب فى المدرسة لأن جميع رفاقه فسده الأخلاق يصحبونه معهم إلى أندية الرجس فيفقد طهارته وعفته من حيث لا يدرى إن فى

فعله

فعله هذا مايخالف الآداب والفضيلة . تفسد أخلاق الشاب من أول نشأته لأنه لايسمع من مرشديه أن الفسوق محرم بل بالعكس يسمع أن صحة الجسم تستلزم بعض الشيء وجميع المحيطين به يقولون إن الوقوع شيء طبيعي قانوني مفيد للصحة وفاكهة الشباب الحلوة . لهذا كله لايدرك الشاب أنه سائر فى طريق الضلال بل يقطع الطريق الطبيعية التى يسير فيها كل صحبه وأفراد الوسط الذى يعيش فيه . فيبدأ بالفحشاء كما يبتدىء بشرب المسكر والتدخين .

وأنا أعرف أمهات كثيرات يعتنين بأمر أولادهن فى هذا الطريق رعاية لصحتهم . بقى على الشاب أمر واحد يخشى عاقبته من ارتكاب الموبقات وهو العدوى من المرض المشهور غير أن الحكومة التى تهتم بصحة رعاياها لم تدع مجالاً للخوف فإنها بهمة فائقة تعتنى اعتناءاً تاماً بالمواخر . والأطباء كهنة أصنام العلم يراقبون المومسات لقاء أجور يتقاضونها وهم من جهة أخرى يفتون للشباب بضرورة الاجتماع ولو مرة فى الشهر مراعاة لقانون الصحة .

فهم على ذلك يرتبون سير الفحش ترتيبا مدققا ويضبطون دوائره ضبطاً « محكماً » .

ليت الحكومة التى تهتم اهتماماً عظيماً بإزالة الزهرى معالجة تستعمل جزءاً من مائة من ذلك الاهتمام من إزالة المومسات فيصبح إذ ذاك فى خبر كان .

وقال فى حفلات الرقص الساهرة : يجرى بيننا وتحت نظرنا من الأمور السافلة ما لا طاقة لذى ناموس وشرف على احتماله يزورنا رجل لانجهل من سيرته شيئا فنستقبله أحسن استقبال وعندما يدخل قاعة الضيوف يجالس أختى أو ابنتى أو قرينتى حيث يتركنى وشأنى أو أتركه وشأنه . وربما أعرف من

سلوكه

سلوكه وتصرفاته ما أعرف فكان يلزم والحالة هذه أن أتقدم إليه عند قدومه واتنحى به جانباً وأقول له هامساً إنى ياصاح أعرف أحوالك وأين تصرف لياليك ومع من فليس لك عندنا مكان لأن فتياتنا طاهرات .

كذا كان ينبغى أن يفعل كل واحد منا ولكنا نجرى على العكس مما تقدم . فإذا اجتمعنا مع هذا الرجل فى ليلة راقصة كان له أن يرقص مع أختى أو ابنتى ويعانقها ويخاصرها نراه بأعيننا ونشاهد حركاتهما معا غدواً أو رواحاً وميلاً واهتزازاً ولا تشمئز منه نفوسنا بل نتساءل إذا كان حراً لنسعى فى تزويجه بإحدى بناتنا ولو كان أثر المرض بادياً عليه » .

ثم قال عن الأزياء وحالة الطبقة العالية من نساء أوروبا : إننا لو أمعنا النظر فى معيشة نساء الطبقات العليا كما هى من قلة الحياء والخلاعة لا نجد ثم فرقاً بين البيت الذى يضمهن ونادى مومسات مختلط .

ولكن الناس لا يوافقوننى على كلامى هذا فأنا إذاً أقيم لهم برهاناً حسياً :

هم يقولون إن نساء هيئتنا الاجتماعية يعشن بحالة تخالف معيشة المومسات ، وأنا أخالفهم فى ذلك وأقول : إذا كانت النساء تختلف فى حالة المعيشة الداخلية فمن الحقائق المقررة أن مايكون خارجاً منهن أثر المعيشة فى الداخل وهذه يلزم أن تخالف معيشة المومسات من كل وجه ولكن أنا لا أرى فرقاً كبيراً بين معيشة الفريقين فى الخارج . قابلوا أيها الناس بين المومسات وبين نساء الطبقة العليا تجدوهن متفقات فى الهيئات والأزياء والروائح العطرية وإعراء السواعد والمناكب والصدور ووضع الوسادة خلف الظهر أينما جلسن وأينما ركبن وفى اقتناء أنفس الجواهر والحجارة الكريمة اللماعة وفى المراقص والغناء .

وكما

وكما أن المومسات يستعملن كل الوسائط الفعالة لغواية الشبان وجذبهم واستمالة النفوس حتى يصبو لهن كل راء كذلك نساء الطبقات العالية يفعلن فى وسطهن .

النبي محمد

جاء فى إحدى المجلات الروسية* تحت هذا العنوان مايأتى بالحرف الواحد :

فى شبه جزيرة العرب المجاورة لفلسطين حيث كان الناس يدينون بالديانتين المسيحية واليهودية ظهرت ديانة عظيمة أساسها الاعتراف بوحدة الله وهذه الديانة تعرف بالمحمدية أو كما يسميها أتباعها الإسلام وقد أنتشرت هذه الديانة انتشاراً سريعاً بين قبائل متعددة وأمم كثيرة حتى بلغ عدد منتحليها فى هذا العصر نحو مائتى مليون نفس .

مضى على ظهور الديانة الإسلامية ١٣٣٠ عاما أو بعد ظهور الديانة المسيحية بنحو ٦٠٠ سنة ومؤسس هذا الدين هو العربى محمد .

كان العرب أقرباء اليهود باللغة والجنس قبل ظهور الرسول وثنيين يعبدون آلهة متعددة وأرواحا صالحة وشريرة وكانت تقسم إلى قسمين عائلية ووطنية فكان كثير من العائلات تصنع لها صنماً خاصاً تعبده وكان فى كل قبيلة صنم عام تسجد له برمتها ولكن العرب عموماً كانوا يعتقدون بوجود آله يعتبرونه أبا لهذه الأرباب ويسمونه « **الله العلى العظيم** » .

وكانت اعتقادات العرب الدينية مملوءة بالخرافات وديانتهم مبنية على القسوة والانتقام والتعادى .

* (المعرب) هذه اقوال كاتب روسى مسيحى منصف نشرها بين قومه لإطلاعهم على جوهر الدين الإسلامى وما فيه من الحقائق الباهرة وهى حرية بالاعتبار لصدورها من كاتب فاضل يقول الحق ولا غرابة فرجال الفضل المنصفون وجدوا فى الدنيا لتقرير الحقائق ودفع التهم وإرشاد الناس إلى الحقيقة الناصعة التى لبثوا أعواماً طوالًا وهم فى ريبة منها لما قرأوه عنها من الاختلافات التى بثها فى نفوسهم بعض الكتاب الذين يجرون وراء تيار الأهواء ويخالفون ضمائرهم لإرضاء فريق من الناس وهى خلة ذميمة فى الكتاب الذين هم مصابيح الأزمنة والواجب يقضى عليهم بتبديد غياهب الجهل وإنارة الأفكار بنبراس الحقيقة فإذا سار العلماء والكتاب على خطة هذا الكاتب الروسى أفادوا العالم فوائد لا يقدرها إلا كل ذى شعور حى يتألم لتنابذ الناس وتباغضهم .

ولقد

ولقد انقسمت بلاد العرب إلى ثلاث مقاطعات وهى : اليمن ذات التربة الخصبة ويعمل أهلها بالزراعة وتربية المواشى ثم نجد ويسكنهاقوم رحل يتوفرون على تربية الماشية والغزو والنهب ثم الحجاز أهلها أرباب تجارة مع مصر وسوريا والجهات الأخرى وعاصمة هذه الجهة مكة وهى المدينة المقدسة عند جميع القبائل العربية ولكل قبيلة فيها أصنام خاصة بها وفيها الكعبة المعبد العظيم الذى يحفظ فيه الحجر الأسود الذى تقول تقاليد العرب بشأنه إن الله سبحانه وتعالى أنزله على إبراهيم جد العرب لأنهم يعتقدون أنهم من نسل إسماعيل ابن هاجر .

وكان العرب يزورون مكة فى كل عام وحتى يأمنوا على نفوسهم من القتل والسلب فى خلال هذه الزيارة عينوا أربعة أشهر فى العام حرموا فى أثنائها سفك الدماء والغزو والسرقة .

ولما وحد النبى محمد قبائل العرب وأنار أفكارهم وأبصارهم بمعرفه الآله الواحد هذب أخلاقهم ولين طباعهم وقلوبهم وأصلح عاداتهم البربرية الهمجية وجعلهم أمة مستعدة للرقى والتقدم .

كان العرب قبل ظهور النبى محمد يقدمون لآلهتهم الذبائح البشرية من أسرى الحرب ومن أولادهم — فيئدون بناتهم — ويقتلون عدوهم وعلى الجملة فقد كانت أخلاقهم مبنية على القساوة والانتقام وسفك الدماء وقد قضى النبى محمد على ذلك جميعه ونادى بعبادة الخالق سبحانه وتعالى وساوى جميع العرب أمام الله وحرم الانتقام ومنع سفك الدماء وهذه الأعمال العظيمة التى قام بها محمد تدل على أنه من المصلحين العظام وعلى أن فى نفسه قوة فوق قوة البشر .

ولد النبى محمد عام ٥٧١ من أبوين فقيرين وقد توفى والده قبل ولادته بشهرين وتوفيت والدته فى العام السادس من عمره

فكفله

فكفله أولا جده ثم عمه الذى كان يصحبه معه فى سفراته التجارية .

وكان النبى محمد فى حداثته يخدم أعمامه فيرعى ماشيتهم ويقود جمالهم .

ولما بلغ العام العشرين دخل فى خدمة قريبته الأرملة خديجة من ذوات الثروة الواسعة بصفة وكيل لها وبعد مرور سنة قضاها فى خدمتها تزوجها مع أنها كانت أكبر منه بعشرين عاما وقيل بخمسة عشر .

كان محمد ذا فكر نير وبصيرة وقادة واشتهر بدماثة الأخلاق ولين العريكة والتواضع وحسن المعاملة للناس وأشتهر بميله للأبحاث الدينية حتى إنه كان يناقش اليهود والنصارى ومن هذه المناقشات عرف أشياء عن موسى والمسيح وعرف بعض الشيء من تعاليم التوراة والإنجيل وعرف أنه يوجد إله عظيم لم تصنعه الأيدى البشرية(١) .

مضت على محمد أربعون سنة قضاها بسلام وطمأنينة وكان جميع أقاربه يحبونه محبة شديدة وأهل مدينته يحترمونه احتراماً عظيماً لما هو عليه من المبادىء القويمة والأخلاق الكريمة وشرف النفس والنزاهة وكانت ثروة زوجته تكفيه مؤونة الكدح للمعاش فعاش رخاء وهناء ولكن من جهة أخرى كانت فى نفسه عواطف دينية قوية تدفعه إلى القيام بعمل عظيم ألا وهو إخراج أمته ومواطنيه من دياجير الجهل وظلمات الخرافات الدينية .

وصل الاعتقاد الدينى بمحمد إلى الاعتراف بأن موسى وعيسى من أنبياء الله ولكنه لم ترقه بعض عقائد الديانتين المسيحية واليهودية .

ولطالما انقطع محمد فى حداثته إلى الجبال المجاورة لمكة حيث

(١) (المعرب) إن الذى نعرفه من كتب الإسلام والسير النبوية لا يثبت هذه الرواية .

يقيم شهراً متعبداً وكان شعوره الدينى يزداد عاماً فعاماً أيقن فى النهاية أن أرباب أمته لا شعور لها ولا قوة وأن الإله الحقيقى واحد وهو الله منشىء الكائنات ومدبرها بقوته غير المحدودة ففى سنة من سنوات اعتزاله تواترت عليه ذات يوم الأفكار الدينية وبعد ذلك اضطربت لها نفسه اضطراباً شديداً فدخل مغارة ونام فيها وفى خلال نومه رأى رؤيا دعاه فى خلالها هاتف ليكون نبياً يدعو أمته لمعرفة الإله الواحد ولما استيقظ من نومه عاد إلى منزله مضطربا وبعد عدة أسابيع رأى رؤيا أخرى دعاه فيها صوت ذلك الهاتف ليكون نبياً لأمته فعزم بعد هذه الرؤيا بدون تردد على دعوة أمته إلى معرفة الحق وصمم العزم على تطهير البلاد من الأصنام .

ومن أراد أن يحكم على الدين الأسلامى ومبادئه وروح تعاليمه فليطالع الآيات الآتية التى اقتطفناها من القرآن وهى :

سورة المائدة (٦٩)

﴿ أن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الأخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

سورة الرحمن (٢٦ ، ٢٧)

﴿ كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الاجلال والاكرام ﴾

سورة البقرة (٢٨٦)

﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ماكسبت وعليها مااكتسبت ﴾ .

سورة التوبة (٦٠)

﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ .

سورة آل عمران (١١٤ ، ١١٥)

﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الأخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات

وأولئك

وأولئك من الصالحين ، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين ﴾ .

﴿ فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ . سورة التوبة (١٢٩)

﴿ لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ سورة الأنبياء (٢٢)

﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون ﴾ . سورة البقرة (١٥١)

﴿ قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ﴾ . سورة الانعام (١٤)

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ . سورة ال عمران (١٣٠)

﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهوذ والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ . سورة المائدة (٨٢ ، ٨٣)

﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ﴾ . سورة الاسراء (٢٩)

﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولاتبذر تبذيرا ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ﴾ . سورة الأسراء (٢٦)

﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون سورة البقرة (٢٧)

ما أمر

ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ .

سورة آل عمران (١٩ ، ٢٠)

﴿ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ، فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعنِ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وأن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ .

سورة النساء (١)

﴿ يا أيها الناس إتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالًا كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾

سورة محمد (٣٦)

﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ﴾ .

سورة البقرة (١٣٦)

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

سورة البقرة (٢١٣)

﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

سورة البقرة (٢٧٤)

﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

الله

﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾ . سورة النور (٣٥)

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمورهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ . سورة النور (٣٠)(٣١)

﴿ يأأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ . سورة التحريم (٦)

﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴾ . سورة البقرة (٢١٥)

﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ، أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ . سورة البقرة (٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤)

وقد صدقت عائلة النبى محمد برسالته وكذلك على وزيد

وانضم

وانضم إليه أبو بكر الذى غدا من أكبر أنصاره وأكد أكثر مؤرخى العرب أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال وأن خديجة أول من أسلمت من النساء .

وقد أراد النبى محمد فى بدء رسالته أن يسير على عادات قبيلته فدعا كبار عشيرته وأعلنهم برسالته فلما سمعوا منه مقالته استكبروا منه ذلك وأخذ الغضب منهم مأخذاً عظيماً لأنهم انتظروا أن يسمعوا منه كلاماً عن تجارة أو غزوة وقال له أبو لهب أحد أعمامه بلهجة الغضب ألهذا دعوتنا فاختنق واصمت ثم تفرقوا صاخبين هازئين .

ثم أخذ النبى محمد يجاهر برسالته فعاب دين قبيلته وسفه أحلامها وسب آلهتها فأساء بذلك إلى أشراف القبيلة ورأوا فى رسالته خطراً على البلاد وأهلها ولكن لم يجسر أحد منهم أن يقاومه خيفة من وقوع النزاع والشقاق وفى سنى رسالته الأولى لم يصدق بنبوته إلا ٤٣ شخصا أكثرهم من الفقراء والعبيد الذين سامهم مواليهم صنوف الاضطهاد والهوان فأخذ إذ ذاك أبو بكر أعظم أنصار النبى محمد يفتدى أولئك العبيد بأمواله واشترى مراراً بماله المعذبين لإنقاذهم من الآلام .

وفى خلال ذلك طلب القريشيون من أبى طالب عم النبى محمد لكى يرجع أبن أخيه عن كلامه وحاله فنصح له أبو طالب ولكن النبى أجاب بقوله « لو أعطونى الشمس بيمينى والقمر بشمالى لكى أترك هذا الأمر قبل أن ينصره الله أو أهلك أنا فى سبيله فلن أتركه » ولما قال هذا أراد الخروج فمسك به أبو طالب وقال له ؟ جاهر بأمر رسالتك وعلم ما تريد فلست بمسلمك لهم يا ابن أخى ولن أتركك أبداً .

وفى عام ٦١٧ توفيت خديجة وبعد وفاتها بعدة أسابيع توفى أبو طالب أيضا وبذلك انقطعت علاقات النبى محمد القلبية مع

مكة فغادرها إلى المدينة ولم يمض على اقامته فيها زمن طويل حتى آمن برسالته كثيرون ألفوا جماعة أطلق عليها جماعة المؤمنين اشتهروا بالتقوى والصلاح وحسب تعاليم الاسلام كانوا جميعهم متساوين فى كل شيء ولم يكن بينهم أثر للسيادة والانقسام إلى طبقات متفاوته فى الحسب والنسب كما كان الحال عليه عند القبائل العربية وقد ضربت السكينة بين جماعة المؤمنين أطنابها ورفعت المساواة قبابها فتناسوا ما كان بينهم من الحزازات والضغائن وأصبحوا يعيشون كنفس واحدة وكان الواجب يقضى عليهم أن يدافعوا عن بعضهم بعضاً ويردوا هجمات الغير المؤمنين .

وقد جرت عدة وقائع حربية بين أنصار النبى وأهالى مكة انتهت بانتصار الأنصار الذين دخلوا مكة ظافرين وقد طاف النبى وهو على ناقته حول الكعبة سبع مرات ومس الحجر المقدس بعصاه ثم أمر بتحطيم جميع الأصنام التى كانت منصوبة حول الكعبة وأعلن أن جميع الناس متساوون أمام الله عز وجل ثم أمر المكيين أن يحطموا الاصنام الموجودة فى منازلهم وقد لبى الجميع هذا النداء لوثوقهم بضعف آلهتهم وأنها لا قوة لها .

وفى آخر رحلة رحلها النبى إلى مكة جمع حولها الحجاج وذكرهم بجميع وصايا الإسلام ونصح لهم بأن يعيشوا مع بعضهم عيشة سلام وأمان وأن يكونوا إخواناً وأن يتناسوا الأحقاد القديمة ويكفوا عن سفك الدماء والأخذ بالثأر — وأوصاهم خيرا بزوجاتهم وعبيدهم وفى الختام قال : إننى قد قمت بما عهد إلىّ .

وبعد عدة شهور مضت على مغادرته مكة انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء وكانت وفاته فى اليوم الثامن من شهر يونيه سنة ٦٣٨ فى العالم الثالث والستين من سنى حياته وقبل وفاته

أعتق

أعتق جميع عبيده .

إن محمداً نبى الإسلام الذى يدين به الآن أكثر من مائتى مليون نفس قد قام بعمل عظيم جداً فإنه هدى الوثنيين الذين قضوا حياتهم بالحروب الأهلية وسفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية إلى معرفة الإله الواحد وأنار أبصارهم بنور الإيمان وأعلن أن جميع الناس متساوون أمام الله سبحانه وتعالى والحق الذى لا مراء فيه أن النبى محمداً قام بعمل عظيم وانقلاب كبير فى العالم ومن أراد أن يتحقق ما هو عليه الدين الإسلامى عليه أن يطالع القرآن الكريم بإمعان وإذ ذاك يصدر حكما مبنياً على الحقائق الباهرة التى يتضمنها وقد جاءت فيه آيات كريمة تدل على روح الدين الإسلامى السامية فمنها الآية الكريمة القائلة :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ .

أقوال الكتاب

في الإسلام والمسلمين

فى روسيا جمعيات عديدة دينية أنشئت لتبشير الأمم الإسلامية بالدين المسيحى مثل قبائل الكيرجيز والتتر والشركس وغيرها ويبلغ عدد المسلمين فى روسيا أوروبا نحو ستة عشر مليونا ونصف هذا عدا مسلمى القوقاس وأواسط آسيا الخاضعين للحكومة الروسية وحسب آخر إحصاء عام أجرى فى روسيا عام ١٩٠٧ بلغ عدد المسلمين ١٠٦ فى الألف من مجموع السكان وإذا راجعنا تاريخ المسلمين فى روسيا نجد أنه مرت عليهم أزمان قاسوا فيها صنوف الأضطهاد الدينى وارغموا مراراً على ترك دينهم وأضطر منهم ألوف أن يتنصروا بالاسم ونقلوا أسماءهم من سجلات المسلمين إلى سجلات المسيحيين ولكنهم تنصروا اسماً وهم لا يعرفون شيئ من الديانة المسيحية سوى تسميتهم بحنا وبطرس ومرقص ومتى وفى الوقت نفسه لبثوا محافظين على عقائد الدين الإسلامى والأخلاق الإسلامية ولبثت نساؤهم محافظة على الحجاب وأذكر أنه منذ ثمانى سنوات تمكن بعض نوابغ المسلمين الروسيين وأعيانهم من استصدار أمر قيصرى بإعطاء الحرية للمسلمين المتنصرين اسماً أن يرتدوا للدين الإسلامى فأرتد منهم فى أيام قليلة نحو أربعين ألف ونيف وكانت أيام الارتداد هذه أيام أعياد واحتفالات شائقة بين المسلمين أقاموا فيها الزينات والولائم ونحروا فيها الجزر وأكثروا من الصدقات على الفقراء

والمحتاجين

والمحتاجين وأقاموا الصلاة فى جميع مساجد روسيا .

وأهم مسألة يشتغل فيها النواب المسلمون فى مجلس الدوما هى توسيع الحرية للمسلمين وتخويلهم حق الدفاع عن دينهم كلاماً وكتابة والرد على جماعة المبشرين الذين يصدرون فى كل عام مئات من الكتب ويكتبون فى مجلاتهم وجرائدهم المطاعن على الدين الإسلامى وكان المسلمون من قبل لا يصح لهم أن يردوا على تلك المطاعن أو يدحضوها بالبراهين الساطعة والأدلة الدامغة بل كانوا مرغمين على سماع تلك المطاعن وهم صامتون وقد أحرجت صدورهم وتغلغل الحقد فى قلوبهم ولكن بعد الجهد والعناء استطاع النواب المسلمون فى مجلس الدوما بمساعدة بعض النواب المسيحيين المنصفين الذين طهرت قلوبهم من أدران التعصب الذميم واشربت أفئدتهم بحب الإنصاف ونشر أولوية المساواة من استصدار قرار من المجلس المذكور صادق عليه جلالة القيصر نقولا الثانى يتضمن الأمور الآتية :

أولا — منح المسلمين حق الدفاع عن دينهم والرد على أقوال المبشرين وغيرهم من الذين يطعنون على الدين الإسلامى .

ثانيا — منحهم الحق فى إصدار جرائد ومجلات باللغة العربية وكانوا من قبل لايستطيعون إصدار جريدة أو مجلة إلا باللغتين الروسية والتترية .

ثالثا — منحهم الحق فى إنشاء مدارس وكتاتيب بجوار المساجد تعلم العلوم باللغتين التركية والعربية وكانوا من قبل مجبورين على تدريس اللغة الروسية فى مدارسهم .

رابعا — تخويلهم الحق فى تعيين الأئمة ورجال الدين من أشخاص يعرفون اللغتين التترية والعربية وكانت الحكومة من قبل لا تسمح بتعيين المسلمين فى الوظائف الدينية إلا إذا كانوا

يجيدون اللغة الروسية وأمثال هؤلاء قليلون بين رجال الدين المسلمين ولذلك كانت الحكومة تعين رجالًا جهلاء فى الدين وتهمل المستحقين لعدم معرفتهم اللغة الروسية .

خامسا ـــ تخويلهم حق إدارة مدارسهم الدينية وأوقافها وكانت من قبل هذه المدارس تديرها وزارة المعارف الروسية .

سادسا ـــ منع المسلمين من الإتجار ببيع المشروبات الروحية .

سابعا ـــ منع المسلمات من إنشاء مواخير للفساد وإدارتها .

ثامنا ـــ إعطاء المسلمين الحرية فى قفل مخازنهم ومحلات متاجرهم يوم الجمعة وعدم إرغامهم على قفلها يوم الأحد .

تاسعا ـــ تعيين أئمة من الجيش للقيام بخدمة الجنود المسلمين الدينية .

عاشرا ـــ تقديم مأكولات للجنود المسلمين ليس فيها طعام محرم فى الدين الإسلامى .

حادى عشر ـــ منح المسلمين الحرية فى إنشاء الجمعيات الخيرية والنوادى الأدبية العلمية لتعمل على ترقية المسلمين مادياً وأدبياً .

وبعد صدور الأمر القيصرى بالتصديق على هذا القرار انشرحت صدور المسلمين فى روسيا وتنسموا رائحة الحرية التى ساعدتهم على السير فى طريق الرقى الأدبى فأنشأوا الجرائد العديدة بلغتهم العربية فأصبح عندهم نحو مائتى جريدة ومجلة سياسية وأدبية وتاريخية ودينية بعد أن كانت جرائدهم قليلة العدد جداً وألغى كثيرون القسم الروسى من جرائدهم وأنشأوا أيضا كثيراً من الجمعيات الخيرية والأدبية والمدارس العديدة وأصبحوا يرفلون فى رياض الحرية .

على أن كثيرين من كتابهم الفضلاء مازالوا يشكون من

جمود المسلمين فى روسيا وتمسكهم بعقائد وتقاليد قديمة وأنه يلزمهم وقت طويل لمجاراة الأمم الغربية فى مضمار الحياة وإقبالهم على تعلم العلوم العالية وكثيرون من أولئك الكتاب الأفاضل أخذوا يؤلفون الكتب ويكتبون المقالات فى الجرائد والمجلات يحثون بها أبناء دينهم على طرح نير الجمود والاستكانة ويرشدونهم إلى طريق الرقى وبوجه الإجمال فإن مسلمى روسيا نهضوا فى هذه الأيام نهضة شريفة تبشر بحسن الاستقبال وخير المآل إن لبثوا سائرين على محور الهمة والنشاط حقق الله آمالهم .

على أن الحكومة الروسية من قديم الزمان كانت وما زالت ولن تزال عاملة على معاملة المسلمين فى بلادها بالحسنى ومنحتهم كثيرا من الحقوق لم تمنحها لغيرهم من الأمم المستظلة بالراية الروسية ولا عجب فى ذلك فإن المسلمين فى روسيا أظهروا فى حوادث كثيرة على أنهم من أشد الناس إخلاصاً لحكومتهم وطالما دافعوا عنها بنفوسهم وأموالهم واشتهرت الجنود الإسلامية فى الجيش الروسى بالبسالة والإقدام والدفاع عن حقوق الوطن وقد عرف فيهم ذلك قياصرة روسيا فاختاروا حرسهم الخاص منهم ومنحوهم حقوقا عديدة .

والحكومة الروسية من قديم الزمان تحافظ على شعور المسلمين الدينى وتعاملهم فى الحقوق المدنية بحسب الشريعة الإسلامية وقد نشرت فى العدد ٣٦٠٥ من جريدة المؤيد الصادر يوم الاثنين الموافق ١٠ مارس سنة ١٩٠٢ مقالة تحت عنوان « الشريعة الإسلامية فى المحاكم الروسية » وجدت إظهاراً للحقيقة أن أنشرها هنا وهى معربة عن جريدة نوفويه فريميا أشهر الجرائد الروسية ولسان حال وزارة الخارجية الروسية وهاهى بنصفها وفصها :

لا توجد

لا توجد مقاطعة فى أنحاء المعمورة تقضى فيها حقوق أهاليها بشأن الإرث حسب نصوص شريعة الديانة المتدين بها أهل تلك المقاطعة الخاضعون لمملكة متدينة بدين يخالف دينهم . ففى الجزائر والهند تستعمل محاكمها الشريعة الإسلامية فى قضايا الوطنيين الأصليين فقط وأما فى سائر أنحاء فرنسا وإنجلترا فإن المسلمين يرثون حسب نظام قانون نابليون والقوانين المدنية للبلاد التى يقيمون بها . غير أن روسيا شذت عن هذه الطريقة ففيها وحدها يرث المسلمون حسب نصوص الشريعة الإسلامية وقضاة محاكمها مأمورون بالسير على تلك الشريعة المرعية فى محاكمنا من عهد بعيد ومصرحة فى البند ١٣٣٨ وما بعده من بنود المجلد العاشر من القانون المدنى ومشروحة شرحاً واضحاً لا يدع أثر للريب فى النفوس .

ومع ذلك فإنى أقول لقد حان لحكومتنا أن توجه التفاتها إلى الصعوبات التى تنجم عن استعمال تلك الشريعة التى لا يبررها بند القانون القائل باستعمالها بالنظر لعدم مطابقتها للعقل .

ولقد ظهر من آخر إحصاء أن نسبة عدد المسلمين ١١ـ ٦ فى المائة من جميع الأهالى الروس (١) منهم ثلاثة فى المائة من مسلمى أوروبا بروسية والباقون فى أملاك روسيا فى آسيا ثم إنه فى بعض ولايات روسيا يكثر عدد المسلمين حتى إنه يبلغ عدد نصف الأهالى كولاية أوفا وفى بعضها يقل عددهم .

* هذا على حسب إحصاء أجرى عامه ١٩٠٠ ولكن هذا العدد تزايد جداً .

ففى قضايا ميراث ومخاصمات المسلمين تسير المحاكم الروسية حسب نصوص الشريعة المحمدية وذلك مما يدعونا إلى إنعام النظر فى هذا الأمر .

إن المسلمين القاطنين فى روسيا أوروبا يخضعون ديناً لرئيسين روحيين عظيمين أحدهما يقيم فى ولاية القرم والثانى فى ولاية أورنبرج وأما مسلمو القفقاس فينقسمون إلى قسمين

سنية وشيعية يقيم رئيساهما فى مدينة تفليس عاصمة تلك البلاد ورؤساء الدين هؤلاء يقضون فى مصالح المسلمين من زواجهم وأحكام دينهم وإرثهم وإنما فى قضايا الإرث يكونون كوسطاء للتراضى والصلح بين الورثة وإذا لم يستطيعوا ذلك فالورثة يترافعون أمام المحاكم الروسية التى تحكم لهم حسب نصوص الشريعة الإسلامية كما قدمنا وإذا أجلنا الطرف فى هذا النظام المطابق لنصوص المجلد العاشر بخصوص إرث المسلمين فلا يبقى فى نفوسنا ريب أن هؤلاء يترافعون فى مسائلهم الدينية لدى أئمتهم الذين يؤلفون محكمة لا يقبل حكمها النقض والإبرام وأما فى القضايا العامة وعلى الأخص قضايا الإرث فإنهم يترافعون أمام المحاكم الروسية التى تقضى لهم أيضا حسب نصوص شريعتهم المرعية الإجراء والموضوعة بين بنود قوانيننا الخاصة بالمسلمين وعليها ذيول شتى بخصوص إرث المسلمات لأزواجهن وهنا نورد نص الفقرة الأخيرة من قانوننا الذى يصرح بذلك فى قوله « فى قضايا إرث المسلمين وكذلك فى جميع قضاياهم العامة ينبغى على القضاة الروس أن يسيروا طبقا لنصوص الشريعة الإسلامية ولا أدرى لماذا تفضل حكومتنا المسلمين على اليهود من رعاياها مع أن تلمودهم يتضمن شرائع مختلفة ونواميس متعددة لجميع ظروف وأحوال اليهود المدنية والدينية وإذا ، فرضنا بأن ذلك التفضيل ناجم عن حصول المسلمين عندنا على حقوق وامتيازات أكثر من اليهود وأن شرائع التلمود غير وافية أو تامة كالشريعة المحمدية فإنه كان يمكننا الوقوف عند هذا الحد فى الكلام ونرضى بسير الأحكام

التى ذكرناها على محورها ومجراها غير أن محاكمنا لحد الآن لم تتمكن من السير على قاعدة معلومة محدودة لكى تقوم بما عهد إليها من الواجب الملقى على عاتقها ذلك لأن قوانين الشريعة

الإسلامية

الإسلامية غير مرتبة الوضع ومن جهة أخرى فإنه لا توجد فى بنود نظاماتنا صراحة ترشد القضاة إلى طريقة معلومة ليسيروا بموجبها وتلك النظامات الإسلامية المعروفة بالشريعة تؤلف مجموعة أجوبة مختلفة لأسئلة متعددة بخصوص الحقوق والأحكام قد وضعها ألوف من المتشرعين المسلمين وكلهم من رجال الدين الذين وضعوها باللغة العربية طبقا لأحكام القرآن ونصوصه وقد اجتمع من هذه القواعد والأجوبة منذ ظهور الإسلام حتى يومنا هذا عدد لايحصيه حاسب وقد اجتهد علماء العرب فى جمع شتات قواعد تلك الشرائع فى مجموعات خاصة بقصد نشرها وتسهيل وجودها والرجوع إليها عند مسيس الحاجة وترجم أكثر هذه الكتب إلى اللغتين الفرنسية والإنكليزية وإنما لم يترجم منها إلى اللغة الروسية سوى الكتب الآتية :

أولا ــ مجموعة عقائد الشيعيين وشرائعهم ترجمة الأستاذ ميرزا قاسم بك فى عامى ١٨٦٢ و ١٨٦٣ .

ثانيا ــ كتاب شريعة السنيين ترجمة غورديكونى عام ١٨٩٣ تحت اسم الهداية .

ثالثا ــ نظام إرث المسلمين ترجمة العالم موخين عام ١٨٩٨ . وهذه الكتب الثلاثه نافعة جداً لدرس الشريعة الإسلامية .

ثم إنه كما أشرنا آنفا بأن بنود المجلد العاشر من النظام المدنى الروسى لاتصرح للمحاكم الروسية صراحة تامة بالاستناد على نظام إسلامى معروف أو مترجم للغة الروسية ولذلك كان القضاة فى أكثر القضايا يقعون فى أشد الارتباك ولايجدون لهم مخرجا من تلك الحالة الحرجة سوى الكتابة إلى أئمة المسلمين يسألونهم حل مشكل تلك القضية فيجاوبونهم عليها بذكر فقرة

الشريعة الموافقة لحل تلك القضية حلا صحيحاً عادلًا حتى يبنوا حكمهم عليها ولكن شوهد كثيراً بأن تلك الفقرات المرسلة من رجال مختلفين لحل قضية واحدة تناقض الواحدة الأخرى . وعدا ذلك فإن نظام الإرث واسع جدا وهو أعقد فصول الشريعة ولذا جعل علماً مستقلًا لا يدركه إلا بعض أئمة المسلمين الذين يسمون القسام والقضاة الروسيون يصعب عليهم درس هذا العلم الواسع أو درس الشريعة الإسلامية لجهلهم اللغة العربية الموضوعة بها .

ثم إنه لا يتسنى لإحدى المحاكم أن تصدر حكماً بإرث ولم يرضخ له المترافعون الورثة ورفعوه إلى محكمة أعلى فربما نقضت هذه المحكمة بعض الحكم الابتدائى استناداً على فتاوى أئمة المسلمين الموجودين بالقرب منها وبذلك تخالف الحكم الأول الذى أصدرته المحكمة الابتدائية طبقا لفتاوى أئمة المسلمين الذين أفتوا لها بتلك الفتوى وكانت فتواهم مخالفة لفتوى الآخرين وكثيرا ما تتصل تلك القضايا إلى مجلس الشيوخ الذى لا يجد أيضا إلى حلها سبيلًا سوى الاستناد على فتاوى الأئمة وبالاختصار فإن قضايا إرث المسلمين وغيرها تسبب لمحاكمنا ارتباكاً عظيماً هى فى غنى عنه وينجم أكثره من عدم معرفة قضاتنا الشريعة الإسلامية وأنى لهم ذلك ؟

ثم استطرد الكاتب كلامه فقال : ولقد طالعت مقالة فى مجلة وزارة الأديان بهذا الشأن ذيلها كاتبها بعدة آراء إذا سارت عليها حكومتنا تخلصت من تلك الحالة الحرجة ولإتمام الفائدة أذكر تلك الآراء :

أولا — ينبغى أن يضاف إلى نموذج مدارس القضاة الحقوقية درس الشريعة الإسلامية حسب الطريقتين السنية والشيعية وعلم الإرث .

ثانيا

ثانيا ـــ ينبغي على وزارة الأديان أن تنتخب عدة علماء أفاضل لهم معرفة تامة وخبرة زائدة بالشريعة الإسلامية وتعهد إليهم ترجمة تلك الشريعة إلى اللغة الروسية ليسير بموجبها القضاة .

ثالثا ـــ ينبغي أن تضاف إلى بنود النظام المدنى بنود جديدة يبين فيها كيفية استعمال الشريعة الإسلامية والطريقة التى ينبغى على القضاة أن يسيروا عليها فى تطبيق فتاوى الأئمة على نصوص الشريعة وإيجاد الفقرات الموافقة من الشريعة للفصل فى منازعات المتخاصمين بكيفية عادلة غير مجحفة بحقوق أحد .

رابعا ـــ ينبغي على محاكمنا أن تسير أيضا على نظام محاكم تركستان الأهلية .

خامسا ـــ ينبغى على حكومتنا أن تنتخب من المسلمين أئمة ذوى أهلية وكفاءة تعينهم معاونين للقضاة الروس فى حل مسائل الإرث والحكم فى بعض القضايا وتسن لهم نظاماً يسيرون عليه وترتب لهم رواتب شهرية .

ثم ختم الكاتب مقالته بقوله : ولنا وطيد الأمل بأن حكومتنا تعير التفاتها إلى هذه المسألة الخطيرة التى لايحسن السكوت عليها .

وفعلا لبت الحكومة الروسية نداء هذا الكاتب الحر المعتدل ونداء غيره من الكتاب الروسين المنصفين وعهدت إلى لجنة من الكتاب المسلمين الروس والمستشرقين تعريب الشريعة الإسلامية ليسير بموجب نصوصها القضاة الروسيين فى القضايا الخاصة بالمسلمين .

ومما يحسن نشره ويطيب ذكره أن للمسلمين الروسيين عناية خاصة لا توجد لدى غيرهم وهى حفظ القرآن الكريم لاسيما تحفيظه للفتيات وإتماماً للفائدة أنشر مقالة بهذا الصدد

كنت

كنت نشرتها فى العدد ٣٧٢٥ من جريدة المؤيد الغراء الصادر فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٠٢ عربتها عن جريدة ترجمان الروسية الإسلامية وها هى :

جرى فى التاسع من شهر يوليو الماضى امتحان مدرسة البنات التى تحت إدارة حضرة الفاضلة بمبة خانم بولاتوقوف وقد حضر الامتحان ماينيف عن مائة سيدة من والدات الطالبات وقريباتهن فكان عدد المنتهيات اللواتى نلن الشهادة الابتدائية باللغة العربية والروسية والدين والحساب وغير ذلك من العلوم عشر فتيات وقد أجادت تلميذات المدرسة الأجوبة وشنفن أسماع الحاضرات بتلاوة بعض سور القرآن الشريف .

وفى الحادى عشر من الشهر المذكور جرى فى مسجد المدينة امتحان إحدى طالبات هذه المدرسة البالغة من العمر تسع سنوات فى حفظ القرآن واستظهاره أمام جمهور غفير من الوجهاء والأعيان وقد فازت تلك الفتاة فى الامتحان فوزاً مبيناً وتلت القرآن جميعه فى ساعات متوالية فلقبت بالحافظة وحسب العادة الجارية عندهم ألبسها الإمام عمامة خضراء صغيرة وعلى إثر الامتحان أولم والد الفتاة السيد حسن النحاس وليمة فاخرة لجميع الحاضرين .

ثم قالت الجريدة عن حفظ القرآن ما مؤداه : إن استظهار القرآن وحفظه عادة قديمة عند المسلمين ولا تخلو الآن عندنا مدينة أو قرية من حافظين وحافظات للقرآن الكريم وهذه العادة كانت لها أهمية عظمى فى صدر الإسلام لحفظ القرآن سالماً من التغيير والتحريف لعدم انتشار المطابع فى ذلك الوقت ونسخه الخطية كانت قليلة جداً ولذا كان يحفظه الحافظون جيلًا عن جيل فلما شاعت المطابع طبع منه ملايين من النسخ .

ومن ذلك أيضا أن حضرة الفاضلة السيدة صفية عليه خانم

عقيلة سليم أفندى جانتورين تحصلت من وزارة المعارف على رخصة لإنشاء مكتب وبعد أن فازت بضالتها المنشودة شادت من جيبها الخاص داراً فسيحة للمدرسة لتعليم الأولاد فيها اللغتين العربية والروسية وصناعة الأحذية والحدادة وقد استحقت هذه الفاضلة الشكر .

وقد أخذت بعد ذلك النهضة بين مسلمى روسيا تسير سيراً مطرداً وظهر بينهم من نوابغ الكتاب والمؤلفين الذين تلقوا العلوم فى مدارس روسيا وأوروبا العالية وأخذوا قسطا وافراً من مدنية الغرب مثل صدر الدين أفندى مقصودوف أحد النواب المسلمين فى مجلس الدوما الذى خطب من عهد قريب خطبة فى مجلس الدوما كان لها دوى هائل فى جميع أنحاء روسيا أنحى فيها باللائمة على بعض الموظفين الروسيين الذين يضطهدون فى بعض الجهات المسلمين ويصادرون مدارسهم ولكنى لدى إمعان النظر فى خطبته ألفيته يبالغ فى سرد الحوادث وكأنى به كان يبلغ تلك المبالغة ليجعل لخطبته تأثيراً فى النفوس ويحرك الحكومة على الاقتصاص من الموظفين الذين يخالفون القوانين ويعتدون على الرعية بدون حق والذى أعلمه بنفسى وسمعته من أفواه الكثيرين من كبار مسلمى روسيا وسراة القوم أن المسلمين فى روسيا يرفلون بحلل الصفاء ويرتعون فى رياض الهناء .

ومن نوابغ الكتاب المسلمين فى روسيا الكاتب الشهير أحمد بك أجايف المقيم الآن فى الآستانة العلية يحرر بجرائدها وقد رأيت لحضرته فى بعض مؤلفاته مقدمة دافع بها عن الدين الإسلامى وذكر الأسباب التى حملت الأوروبيين على الطعن على ذلك الدين لسبب جهلهم معتقداته وقد رأيت أن أنقلها عنه بالحرف الواحد :

قال

قال الكاتب يذكر الترهات والاختلاقات التى كان ينسبها الأوربيون للدين الإسلامى كما يأتى : إن سواد الأوروبيين الأعظم الذى يسلم بداهة بالأمور دون بحث بأسبابها ونتائجها وذلك بالنظر لاستيلاء العقائد الفاسدة على عقولهم ورسوخها فى أذهانهم سواء كان فى أوروبا أو روسيا فإنهم يعتقدون اعتقاداً متيناً بأن الذنب على الإسلام فى جميع ما يجرى فى البلاد الإسلامية ولولا وجوده لكانت الحال هناك على غير ما هى عليه الآن المعتقدون بهذا الاعتقاد يرون أن المسلمين ماداموا مسلمين لايستطيعون الإقبال على المدنية الأدبية العمومية ثم إنهم أى الغربيين يزعمون أن الشر جميعه متمثل فى الإسلام ويتصورون أن أعظم وسيلة تنقذهم منه هى ملاشاة نفس الدين ومحقه من وجه الأرض وهذه الأفكار رسخت فى العقول منذ أجيال عديدة سالفة من جراء الخصام والشقاق والنزاع العنيف بين الغرب والشرق وذلك فى خلال قرون مديدة بسبب اختلاف الإسلام والمسيحية الأمر الذى يظهر الرجل الساذج الذى لم يعتد التبصر والتفكر والتروى بأن هاتين الديانتين على طرفى نقيض فى الجواهر والمعتقدات ولا يمكن التوفيق بينهما وأخيراً فإن هذا الأعتقاد ساد مدة طويلة بين أهل الغرب يدلنا على ذلك دلالة واضحة الآداب البزنطية واللاطينية المضادة للإسلام ومن أراد زيادة إيضاح عليه أن يقف على مؤلفات ومخلفات العصور الوسطى لاسيما الفترة التى حدثت فيها الحروب الصليبية .

والإنسان يتأثر تأثيراً شديداً تهتز له أعصابه لدى مطالعته تلك الترهات والمثالب والمطاعن التى كان يتناشدها مغنو وشعراء الرومان الساذجون وينادى بها النساك ورجال الدين فى المعابد والمجتمعات العامة والبرارى يصفون فيها شخص وتعليم

سائق الجمال الذى أطلقوا عليه اسم « النبى العربى الكاذب »(١) ومن الأمور المضحكة المبكية نظر أهل الأجيال الوسطى إلى الإسلام واعتقادهم به فكان الشعب يصدق بداهة كل افتراء على الإسلام وأتباعه وقد بالغوا فى استنباط المفتريات والسفاسف لدرجة لايجوز تصديقها لما فيها من الغرابة المنكرة وقد أدى بهم الجهل إلى تصوير محمد بهيئة الشيطان ذى قرنين وأطلقوا عليه (ضد المسيح) الراسخ فى أذهان القوم بأنه يفسد الناس ويخرجهم عن دينهم ولذلك لابد أن يزج فى سعير النار حيث لا يقر له فيها قرار . ثم إن تيورين الكاذب المفترى ألف رواية وصور فيها محمداً بهيئة الصنم ماهوم الذى كانوا يعبدونه فى قادس ولم يجسر كارلوس الأعظم على تحطيمه وتكسيره خوفا من الأبالسة المختفية فى جوفه .

ومما مر يتضح للقارىء أن العقول النيرة كانت منغمسة بمثل هذه الاعتقادات الفاسدة والمفتريات الباطلة البعيدة عن الحقيقة بعد السماء عن الماء وقد أجمعوا عليها كلهم حتى إنه لو قام بينهم فى مثل ذلك الوقت رجل كشف الله له عن نور الحقيقة وجاهر بها لكنت ترى الناس يصبون عليه صواعق سخطهم ونقمتهم فقد كادوا يحرقون دانتى فى النار لأنه عد محمداً فى (روايته الإلهية) بين الرجال العقلاء المصلحين ذوى المدارك السامية فاضطر لكى ينجو من سخط الشعب الذى تهدده بالقتل أن يضعه فى عداد الرجال الأشرار الذين عاثوا فى البلاد فساداً وبثوا بذور الشقاق والنفاق والخصام بين معاصريهم مثل « فراد التشينو » و « برتران بورن » وغيرهما اللذين هم فى عرف الشعب من سكان جهنم . ثم إن المصور الإيطالى الشهير أركانيوس وضع عدة رسوم للأشخاص الذين يحتقرون جميع الديانات على الإطلاق واتخذوها لمجرد الهزء والسخرية فصورهم

* أنظر تاريخ الاداب الفرنسية والآداب البزنطية ضد الإسلام تأليف جمعية المبشرين فى قازان .

واقفين فى جهنم ولهيب النار يكتنفهم من جميع الجهات وفى مقدمتهم محمد وافيردوئيس (الوليد بن رشد) والمسيح الدجال أو ضد المسيح .

وبوجه الإجمال فإن الأجيال الوسطى كما قال أرنست رنان قد اشتهر أهلها بالحدة وعدم التروى ولم يكن عندهم درجة متوسطة لأمر من الأمور فكان محمد فى عرفهم خداعاً ماكراً متخذاً مهنة سرقة الجمال وقالوا عنه بأنه كاردينال سعى للحصول على وظيفة البابوية فلم يفز بها فوضع ديانة جديدة لكى ينتقم من زملائه الكرادلة وما ضارع ذلك من الأوصاف المجردة عن الإنصاف ولا تنطبق على العقل السليم(١) تمر الأجيال وتنقضى السنون ولا تزال سفاسف الناس وترهاتهم وأفكارهم السخيفة الواهية تضغط على العقول النيرة كما كانت فى العصور المظلمة . إن بيبلياندر وهوتينبجر وماراجى وغيرهم أخذوا يدرسون القرآن درسا مدققا على قصد تقويض أركانه وأما لبنتس وشكسبير فإنهما تكلما كثيرا عن نبى المسلمين بقصد إضحاك الجمهور وتسليتهم وأما فولتير فإنه التمس الغفران من البابا بواسطة تقديمة له رسالة الطعن المشهورة التى عنوانها « محمد » وقد نسب بها إلى النبى محمد أموراً منكرة لم تخطر بباله ومنافيه على حظ مستقيم لروح تعليمه ومبادئه .

* أنظر تاريخ الأديان لأرنست رنان ورواية محمد لمؤلفها ف . ميشيل .

ثم إن الجيل التاسع عشر المسمى بحق جيل العلم والانتقاد الصحيح لم يخل من مثل هذه المختلقات والمفاسد التى جاهر بها بعض قادة الأفكار وأصحاب العقول الممتازة فقد وضع العالم الإنكليزى الشهير كارلوس فورستير عام ١٨٢٩ مجلدين ضخمين وقعا موقع الاستحسان والاحترام فى نفوس رجال الدين لأنه برهن فيهما بالأدلة الكثيرة على أن محمداً هو قرن الكبش الصغير الوارد ذكره فى الإصحاح الثامن من نبوة دانيال

وأن

★ كشف النقاب عن الدين الإسلامى وهو بحث فى انتشار الدين وبقائه على طريقة تؤدى إلى زيادة الاعتقاد فى الدين المسيحى .

وأن قرن الكبش الكبير هو البابا(١) ولكن منصف الثانى من الجيل التاسع عشر الذى أشرقت فيه أشعة العلم وأماطت النقاب عن الشرق وتاريخه وحياته وذلك أنه عندما ازدادت المواصلات بين الشرق والغرب بواسطة انتشار السكك الحديدية وازداد توافد الغربيين إلى الشرق حيث دفعتهم المصالح التجارية والصناعية إلى الضرب فى طول البلاد وعرضها فقاد العلم وحب الاستقرار علماءهم وأصحاب الأفكار الفياضة منهم إلى درس أخلاق وعادات أهل الشرق المتدينين بغير دينهم ودرس أحوال البلاد فى نفس البلاد ولم يقفوا عند هذا الحد بل تجاوزوه إلى مطابقة الحاضر بالغابر مطابقة مبنية على العلم والتحقيق والكتابات الماضية وأبدوا فى خلال ملاحظاتهم على الأدوار العديدة التى تقلبت فيها الأديان منذ ظهورها وما تحملته من الانقلاب والتغيير ولم يميلوا فى عملهم هذا ودرسهم مع الأهواء بل دونوا الحقيقة مجردة عن كل غرض فاسد وميل منحرف وهذا يناقض حالة العلماء فى الأجيال الماضية الذين غش التعصب الدينى أبصارهم وأسدل حجابا كثيفا على أفكارهم فأعماهم عن المجاهرة بالحقيقة وقادهم إلى الابتعاد عن جادة الحق والإنصاف وقد تبعهم فى ذلك سواد الناس الأعظم الذين لزعمهم بأنهم حاملو الحق فإنهم لايستطيعون احتمال معتقدات غيرهم من الناس والوقوف حيالهم موقف السكينة والرضى بل يسفهونها ويذهبون فى انتقادها كل مذهب .

أما فى أيامنا الحاضرة التى أصبحت فيها الأديان مادة للمباحث العقلية فقط لأنها فقدت مادة التعلق بها ذلك التعلق الدينى الشديد ولا يهتم بها الناس الآن إلا لأنها من مظاهرات نفس الإنسان ولم يعد الناس يتحاورون بشأنها ولا يوجه كل صاحب دين إلى الأديان الأخرى أنواع السباب والمطاعن

والتهكم

والتهكم وأصبح عمل المستشرق الذى يهتم بأمور الأديان والوقوف على تاريخ الشرق يخرج من تحت ذراعه كتحليل الكيماوى الذى يخرج من معمله وتراه أى المستشرق يهتم بجميع العوارض والمظاهر اهتماماً واحداً دون أن يفضل أمراً منها على الآخر وإنما ينشرح صدره وتطيب نفسه لدى اطلاعه ووقوفه على مبتكرات فكر الإنسان فى كل آن وزمان وإظهار قواه الفياضة ولذلك فلا عجب إذا شاهدنا فى هذا العصر الانقلاب العظيم الشأن الذى أحدثه درس أحوال الشرق فإنه غير نظر العلماء السابق بشأن الأديان المختلفة وشؤون الشرق على العموم لاسيما بشأن النبى محمد وتعاليمه فأصبح محمد فى عرفهم ونظرهم ليس صورة للصنم ماهوم ولا هو ضد المسيح المقيد فى جهنم ولا قرن الكبش الصغير الوارد ذكره فى نبوة دانيال بل هو ذلك المصلح العظيم الذى هز العالم بتعاليمه ومبادئه وأفكاره السامية وأنه وضع أساس تعليمه ليس لأنه كان كاردينالا ولم يفز بوظيفة البابوية بل لأن فؤاده كان يلتهب غيرة على الحق الذى شوهت وجهه الشكوك أو الاختلافات التى دخلت عليه ذلك الحق الذى نادى به فى العالم ذلك « النبى العظيم » قبل ظهوره بستة قرون ولم يدرك جوهره تلاميذه النشيطون الغيورون بل ذهبوا فى تأويله كل مذهب عندما علموا الناس به لاسيما فى البلاد العربية وقد ورد فى القرآن آيات كثيرة تدل على ذلك بأجلى بيان وتأملوا فقط ذلك الشكر ان الجميل الذى جاهز به نبى المسلمين بشأن الصابئين الذين ظنوا لأول وهلة أنه ينادى بتعليم المسيح .

ثم إن آيات القرآن النازلة بشأن آلام عيسى وولادته وذكر مريم والدة روح الله فإنك ترى التأثر ظاهراً من كل كلمة منها مقروناً بذلك بمزيد التعظيم والاحترام وفوق هذا وذاك فإن

المسلمين يعظمون مريم أكثر من بعض الطوائف النصرانية فهى فى عرف المسلمين عذراء طاهرة صالحة قد اصطفاها وشرفها رب العالمين والنبى يظهر لها احتراماً دينياً يفوق الوصف حتى إنه عندما أراد أن يمتدح ابنته فاطمة قال « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران » ثم إن النبى أدراك تعليم عيسى كما هو وجاءت الديانة المحمدية مطابقة لها ونفت جميع المعتقدات الباطلة التى دخلت عليها وشوهت جوهرها وورد فى أمكنة كثيرة من القرآن ما مؤداه وإنى جئت لإثبات تعليم عيسى الحقيقى(١) .

* راجع ترجمة القرآن لسابلوجوف .

قال المستشرق الإنجليزى الشهير ماكس موللر : سوف يعلم المسيحيون بدهش عظيم أن محمداً أحد معضدى يسوع وأن الديانة المحمدية ما هى إلا شيعة من شيع الديانة النصرانية وإذ ذاك يندهش المسلمون والمسيحيون معاً بسبب ما جاء فى تاريخهما من الخصام والشقاق والعداء بسبب الدين(٢) . وقد وافق كثير من علماء أوروبا المستشرقين على رأى هذا العالم وعضدهم فى ذلك أيضا كثير من الروسيين العقلاء ذوى الأفكار السامية مثل فلاديمير سولوفييف وبيترون .

* راجع كتاب محمد والمحمدية لماكس موللر .

والعالمة المشهورة مدام ليبيديف التى تقيم معظم السنة فى القاهرة ويعرفها كثيرون من أفاضل ونبلاء وعلماء المصريين فإنها وضعت عدة كتب بلغات مختلفة دافعت بها عن الدين الإسلامى دفاعاً شديداً وأظهرت فضله وتحضرتها مؤلفات كثيرة بشأن المرأة حرية بالمطالعة والاعتبار .

ولكن مع الأسف نقول أن سواد الناس الأعظم لم يزل على غيه تائها فى فيافى الضلال ولا يجنح إلى الحقيقة الثابتة التى أيدها علماؤه وقادة الأفكار منهم بل مازال رازحا تحت نير اعتقادات وخرافات القرون الوسطى بشأن محمد وتعليمه ناسيا

ضعف

ضعف الأمم الإسلامية فى عصرنا الحاضر وانحطاطهم السياسى والأدبى والأختلاف العام فيما بينهم إلى الإسلام وجاهلًا بأن كل إنسان فى هذه الحياة لا يستطيع أن يلعب على الدوام دور النجاح والتقدم وأن الديانة ما هى إلا شىء مستقل مجرد عن كل قوة لاتستطيع تحسين حالة الحياة ثم إنه وأخيراً لابد من حصول الشقاق المتبادل الدائم بين المتدينين بالديانات المختلفة ولو كان ذلك بطريقة غير محسوسة لكنه دائم الحركة المشتركة بين المتخالفين فى المعتقدات . وكل ديانة كما لا يخفى تكون فى أول ظهورها محرك قوى تدب روح الحركة فى قلوب الذين يتبعونها وذلك على قدر ما يكون لها من التأثير الروحى والمادى فى نفوسهم ولكنها أى الديانة تتقلب مع مرور الزمان فى أدوار مختلفة بحسب حالة تابعيها من العلو والانحطاط فتعتز وتعلو بعلو شأنهم وتنحط بانحطاطهم ويدخل عليها فى الحالة الأخيرة الفساد وتشوه الاختلافات التى تدخل عليها وجه حقيقتها وتزعزع أساس جوهرها وهذا هو السبب الوحيد والبرهان الفرد على ظهور البدع والشيع المتعددة فى هيكل الديانة الواحدة وكذلك دخول الفساد على تعاليمها وتفاسيرها ولو قابلنا حالة الديانة المسيحية بحالتها فى القرون الوسطى وفى أيام الإصلاح وأيامنا الحاضرة لظهرت لنا بأجلى بيان تلك الأدوار المختلفة التى كابدتها وما دخل عليها من التغيير والفساد والتفاسير المتناقضة المتباينة مع أنها ديانة مبنية على أساس متين واضح ومثل ذلك جرى للديانة الإسلامية بقطع النظر عما دخل عليها من البدع والتفاسير التى لاتطابق حقيقة جوهرها وليست منها فى شىء

مصرية
للنشر والتوزيع